فلا تزكوا أنفسكم

الكاتب : رابطة خطباء الشام

التاريخ : 26 نوفمبر 2015 م

المشاهدات : 10085

مقدمة:

إن الله جل جلاله هو خالق الخلق ومدبرهم، يقضي فيهم برحمته وعدله على ما تقتضيه حكمته وعلمه، وهو الحكيم العليم، اصطفى سبحانه المؤمنين من عامة البشر؛ لعلمه بصلاح قلوبهم للإيمان، واستقامتها عليه، ولا يعلم ما في القلوب إلا خالقُها سبحانه وتعالى:

(قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ)(آل عمران: 29).وفي الآية الأخرى:

(وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)(الأحزاب: 51). وفي ثالثة:

(أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ) (العنكبوت: 10).

عناصر الخطبة:

1- تزكية النفس بحصر الحق بها ونفيه عن الغير من صفات بني إسرائيل.

2- النهي عن تزكية النفس، ونسبة الهداية إلى الله.

3- النهي عن تزكية الرجل ومدحه في وجهه.

4- ما يُشرع من التزكية.

5- مزالق تزكية النفس.

6- خوف السلف من تزكية النفس.

1- تزكية النفس بحصر الحق بها ونفيه عن الغير من صفات بني إسرائيل

الإيمان والصلاح والفلاح في أمور الدين والدنيا، ما هي إلا هبات يهبها الله تعالى من شاء من عباده، وواجب على الموهوبين شكر الله تعالى على ما وهبهم، مع الحذر من الغرور بما أُعطوا، وإلا كانوا كأمة بني إسرائيل حين أنعم الله تعالى عليهم بالملك والنبوة، وفضلهم على الأمم التي قبلهم، فغرهم ذلك، وجرأهم على الله تعالى، فاستنكفوا عن عبادته، وكذبوا رسله، زاعمين أن الله تعالى ما وهبهم الملك والنبوة إلا لقربهم منه سبحانه (وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)(المائدة: 18) وقادهم غرورهم إلى احتقار غيرهم، والإزراء بهم ولو كانوا مؤمنين موحدين، فادعوا حصر الهداية في ضلالهم وانحرافهم (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا)(البقرة: 135) وزعموا قصر الرحمة والجنة لهم دون غيرهم ولو كان غيرهم أكثر صلاحا وتقى منهم (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)(البقرة: 111).

ولأجل اعتدادهم بمسلكهم، وغرورهم بعملهم، وتزكيتهم لأنفسهم؛ عابهم الله تعالى وذمهم، وردَّ زعمهم، وفضح كذبهم، وأظهر حقيقتهم، ورفع الأمة الخاتمة عليهم، وسلبهم أفضليتهم ووهبها لغيرهم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا)(النساء: 49-50).

2- النهي عن تزكية النفس ونسبة الهداية إلى الله

إن تزكية النفس بغير وجه حق خلق ذميم، ومزلق خطير، يورد صاحبه موارد بني إسرائيل، في الاعتداد بالنفس، والغرور

بالعلم والعمل، والاستنكاف عن قبول الحق، ونتيجة ذلك الضلال والإضلال.

وكثيرٌ ممن نكصوا على أعقابهم، واستبدلوا الردى بالنجاة، والضلال بالهدى، والكفر بالإيمان، فارتدوا وتزندقوا، وانقلبوا على دين الله تعالى طعنا فيه وقدحا، ورفضا لشريعته؛ كانت بداية ضلالهم وانحرافهم تزكيتهم لنفوسهم، واعتدادهم بآرائهم، وغرورهم بأعمالهم.

من أجل ذلك نهى الله تعالى العباد أن يستكثروا أعمالهم الصالحة؛ فإنها مهما بلغت لا توازي نعمة واحدة من نعم الله التي لا تحصى. كيف؟! والهداية إلى الحق، والتوفيق للعمل الصالح ما هو إلا من نعمة الله تعالى على عبده، فلولاه لضلَّ الطريق وعَمل شراً ولم يعمل خيراً،

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي)(سبأ: 50).

وكان صلى الله عليه وسلم يرفع صوته يوم الخندق يرتجز: (اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا)(البخاري/3034، ومسلم /1082).

وجاء النهي عن استكثار العمل الصالح في أوائل التوجيهات الربانية للنبي عليه الصلاة والسلام كما في سورة المدثر (وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)(المدَّثر:6).

قال الحسن رحمه الله تعالى في معناها: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره.

وما نهى العباد عن استكثار العمل الصالح مهما بلغ إلا لأنه سبب لتزكية النفس بلا حق، وقد نُهي العباد عن تزكية نفوسهم (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)(النَّجم: 32).

فإن كانت تزكية العبد لنفسه في أمور الدين كان المزكي لنفسه مَنَّاناً بعمله على ربه، متخلقا بأخلاق من ضلوا من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وهذا من أعظم أسباب الضلال والانحراف.

وإن كانت تزكية النفس في أمور الدنيا فهي دعاية ممجوجة لها قد تصل بصاحبها إلى العجب والغرور والحسد والكبر وفساد القلب، وكل هذه من عظائم الذنوب وموبقاتها.

3- النهي عن تزكية الرجل ومدحه في وجهه:

روى مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم). فقالوا: بم نسميها؟ قال: (سموها زينب) (مسلم: 2142). وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، قال: أثنى رجل على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ)(البخاري: 2662).

وعن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب)(رواه أحمد: 23826).

4- ما يُشرعُ من التزكية:

وقد يحتاج العبد إلى تزكية نفسه لدفع ضرر أو تحقيق مصلحة راجحة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ من يَنْشَقُّ عنه الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)(رواه مسلم).

ولما ظن بعض الناس أنه يُرَخص للنبي عليه الصلاة والسلام ما لا يرخص لهم أزال هذا الظن الفاسد بتزكيته لنفسه فقال: (أَمَا والله إني لَأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ له)(رواه البخاري).

وقال يوسف عليه السلام (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)(يوسف: 55) فزكى نفسه بالأمانة والعلم؛ لمصلحة

راجحة وهي نفع الناس، مع عدم وجود كفءٍ مثلِه.

ولما خرج الخوارج على عثمان رضي الله عنه وقدحوا فيه درأ عن نفسه، وذكر محاسنه، وأخبرهم بأعماله الصالحة كتجهيز جيش العسرة، وحفر بئر رومة وغير ذلك، وأعلمهم بشهادة النبي عليه الصلاة والسلام له بالجنة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى تعليقا على أحاديث إخبار عثمان رضي الله عنه بذلك: (وفيها جواز تحدث الرجل بمناقبه عند الاحتياج إلى ذلك لدفع مضرة أو تحصيل منفعة وإنما يكره ذلك عند المفاخرة والمكاثرة والعجب..).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك لِيُكَثِّرَ به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود، وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثَّر به عند الناس ويتعظم، وهذا يجازيه الله تعالى بمقت الناس له وصِغَرِهِ في عيونهم، والأول يُكَبِّرُه في قلوبهم وعيونهم، وإنما الأعمال بالنيات، وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه لِيَخْلُصَ بذلك من مظلمة وشرٍ أو ليستوفيَ بذلك حقا له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خِطْبَتِه إلى من لا يعرف حاله، والأحسن في هذا أن يُوكِّل من يُعَرِّفُ به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصيرٌ، وهو في الغالب مذموم؛ لما يقترن به من الفخر والتعاظم). (مفتاح دار السعادة 1/139).

فإن لم يكن للعبد مصلحة راجحة في ذكر محاسن نفسه، ولا يدفع بذلك مضرة واقعة؛ فخير له أن لا يزكي نفسه، وأن لا يظهر محاسنها، بل يجعل ذلك بينه وبين الله تعالى؛ فإن الله تعالى يعلم حسناته وسيئاته. وليتذكر العبد سيئاته في نفسه، ولا يشهرها أمام الناس؛ لئلا يكون من المجاهرين؛ ولأن ذم الشخص نفسه أمام الناس مدحٌ لها بالتواضع، فيأتيه الشيطان من الباب الآخر فيفسد قلبه،

قال الحسن رحمه الله تعالى: (ذم الرجل نفسه في العلانية، مدح لها في السر، ومن أظهر عيب نفسه فقد زكاها).

5- مزالق تزكية النفس:

تزكية العبدِ نفسَهُ تؤدي به إلى تعظيم ذاته، وهضم الآخرين وتَنَقُّصِهم، واحتقار أعمالهم ولو كانت كبيرة،

قال محفوظٌ النيسابوريُ رحمه الله تعالى: من أبصر محاسن نفسه ابتلي بمساوي الناس، ومن أبصر عيوب نفسه سلم من رؤية مساوي الناس.

وقد تعظم تزكية النفس عند العبد حتى تتحول إلى مرض خطير يعشق فيه ذاته، وهو ما يسميه علماء النفس: النرجسية، فلا يتحدث إلا بها، ولا يرى سواها، ولا يعجب بغيرها، نسأل الله تعالى العافية والسلامة

والمزكي لنفسه واقع في الكذب لا محالة؛ لأنه يطلب ثناء الناس وإعجابهم، وقد لا يَفي عمله بجلب ثنائهم له فيزيد من عند نفسه ما لم يعمل ليملأ عيونهم، وينال إعجابهم، فيثنوا عليه بما لم يعمل، ويُخشى على من كان كذلك أن يكون من أهل هذه الآية (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(آل عمران:188).

ومن كذب بما لم يعمل، وتشبع بما لم يُعطَ، فقد كسا نفسه زوراً؛ كما روت أَسْمَاءُ رضي الله عنها: (أَنَّ امْرَأَةً قالت: يا رَسُولَ الله، إِنَّ لي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إن تَشَبَّعْتُ من زَوْجِي غير الذي يُعْطِينِي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لم يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ) (متفق عليه).

6- خوف السلف من تزكية أنفسهم:

ولقد كان السلف الصالح عليهم رحمة الله تعالى أشد الناس حذرا من هذا المزلق المهلك، مع قوة إيمانهم بالله تعالى، وكثرة أعمالهم الصالحة، فلا يفخرون بأفعالهم، ولا يحبون ظهورها للناس، ويلحظون نعم الله تعالى عليهم، فيُزرون بأنفسهم،

ويحقرون أعمالهم خوفا من العجب والرياء وحبوط العمل..

لما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ جعل ابن عباس رضي الله عنهما يثني عليه، ويذكر له مآثره؛ ليقويَّ جانب الرجاء في نفسه، فقال عمر رضي الله عنه: المغرور من غررتموه، لو أن لي ما على ظهرها من بيضاء وصفراء لافتديت به من هول المُطَّلَع.

وقال أيضاً لما أثنى عليه الناس عند احتضاره: (رَاغِبٌ رَاهِبٌ، وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ مِنْهَا كَفَافًا، لاَ لِي وَلاَ عَلَيَّ، لاَ أَتَحَمَّلُهَا حَيًّا وَلاَ مَيِّتًا)(البخاري: 7218)

وكان قيس بن عاصم رحمه الله تعالى من أوفر الناس حلما وعقلا وسخاء، قال له أبو بكر رضي الله عنه: صف لنا نفسك، فقال: أمَّا في الجاهلية فما هممت بملامة، ولا حِمْتُ على تهمة، ولم أُرَ إلا في خيلٍ مغيرة، أو نادي عشيرة، أو حامي جريرة، وأما في الإسلام فقد قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) فأُعجب أبو بكر رضي الله عنه بذلك.

وكان الإمام الدارقطني رحمه الله تعالى من أعلم الناس، وكان أحفظ أهل عصره للحديث وأخبرهم بعلله، فسأله رجاءٌ المعدَّل: هل رأيت مثل نفسك؟ فقال: قال الله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ)(النَّجم: 32) قال رجاء: فألححت عليه، فقال: لم أر أحدا جمع ما جمعت، قال أبو ذر الحافظ: قلت للحاكم: هل رأيت مثل الدارقطني؟ فقال: هو لم ير مثل نفسه فكيف أنا؟.

من نظر في أحوال كثير من الناس في هذا العصر يجد أن تزكية النفس داء قد انتشر بينهم، وكان من أسباب انتشاره وسائل الإعلام، التي تنقل حديث المتحدثين عن أنفسهم، وحديث من ينفخون فيهم من أتباعهم والمتملقين لهم، حتى كثر الحديث وقلَّ العمل، وأضحى أصحاب الثرثرة وباعة الكلام هم سراة الناس وسادتهم، ومن كثر كلامه قلَّ عمله، ومن قلَّ كلامه كثر عمله، والأعمال تتحدث عن أصحابها، ولا تحتاج إلى تزوير المزورين، ولا تطبيل الإعلاميين، ولا تحفظ كتب التاريخ إلا سير من يستحقون الحفظ من عظماء الرجال، وأفذاذ الناس

فالحذر الحذر عباد الله من تزكية النفس بلا حق، ومن الثناء عليها بلا موجب، ومن أُعجب بشيء من عمله فلينظر إلى ذنبه وتقصيره، ومن سرته حسنته، فلتسؤه سيئته حتى يكون مؤمنا.

المصادر: